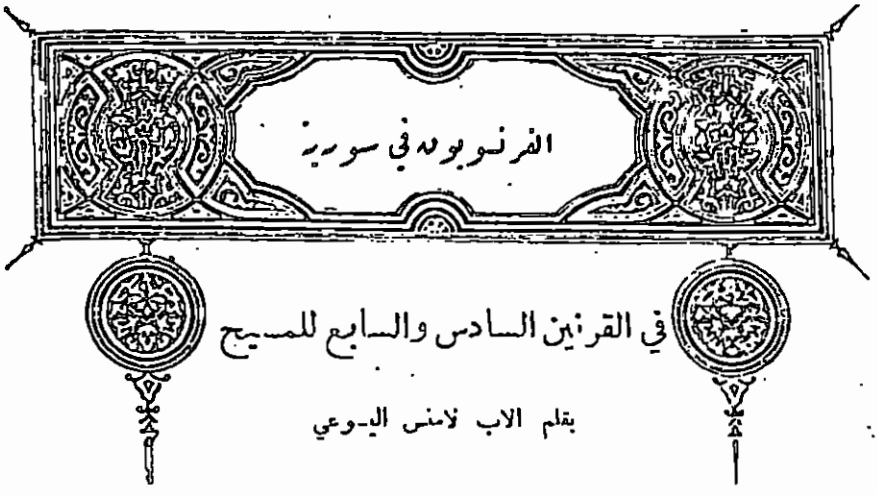

تكلمنا في السنة الفائتة[1] على «السوريين في فرنسة في القرنين السادس والسابع للمسيح» مجتهدين في تلخيص ما لا يعرفه اكثر قرائنا عن العلاقات السورية - الفرنسية في ذاك العهد. فاظهرنا كيف طبق الشعب السوري ما ورثه عن اسلافه الفينيقيين من حب الاسفار والرغبة في المغامرات التجارية، فطاف البحار نازلًا بلاد غالية وازدهر فيها حتى حوّلها، على عهد الميروفنجيين، بين القرن الخامس والقرن الثامن للمسيح، الى مستعمرة اقتصادية متعلقة بسورية.

وقد رأينا اليوم ان نعكس المشهد فنعتبر الوجهة الثانية من الامر، ملخصين علاقات الفرنسويين بسورية منذ ديانتهم بالنصرانية حتى عهد شارلمان اوكرلوس الكبير، ذاكرين العوامل التي اثرت في سياسة الامبراطور العظيم الشرقية، وفي علاقاته مع الخليفة هرون الرشيد.

* * *

ان من يمعن النظر في مسطح سيارتنا الصغيرة، ويدقق في درس جغرافيتها التاريخية، لا يلبث ان يتحقق قلة البلدان المثقلة بالتاريخ والشعر والفن. وان المنطقة التي تشمل سورية وفلسطين لمن هذه البلدان القليلة فهي تحتل في ذلك مركزًا خطيرًا الى جنب رومة واليونان. وان ماضيها وآثارها ولا سيما آدابها

---

١) راجع المشرق (٣٩[١٩٣١] ٢٤١ و٤٢٢)

الدينية لقسم مهم في ذاك الارث العقلي الذي تتوارثه الشعوب ؛ كما انها هي الوطن الروحي لكل انسان يدّعي الثقافة والتهذيب.

هذا ولو اخذنا بتقويم تاريخي لمدنيتنا الحاضرة فجعلنا نعدّ المدن التي اثرت فيها تأثيراً شمل الكون باسره او كاد ، لما تجاوز بنا العدد الخمس او الستّ من هذه المدن العالمية ولكان من نصيب سورية منها اثنتان شهيرتان هما اورشليم وانطاكية . ويمكننا ان نضيف اليهما مدينة تُحسب بحق مستعمرة سورية ، وهي قرطاجة التي عدّها لويس برتران « من المدن الاربع او الخمس التي كانت عواصم العالم القديم .» وقد كان من عظمة حفيدة صور هذه ان البشرية كانت ، لقرنين قبل المسيح ، تنظر بقلق الى ذاك النزاع القائم بينها وبين رومة ، فتسأل نفسها هل يمكن ان تصبح يوماً ما مستعمرة فنيقية . . .

ان من يزور سورية ويتفقد معالمها ويدرس تاريخها يشعر بانه يفهم اكثر من ذي قبل اصول الجنس البشري واسرار مصيره، بل يشعر بانه اقرب الى الفردوس المفقود . هذا ما يُعبّر عنه بجاذبية الشرق ، وهي جاذبية لا تُنكر . فانها تشرح لنا خمسة عشر قرناً من التاريخ . فنتحقق انها هي التي أثرت في القرون الوسطى واناتها الكثير من المعارف ، وهي التي دعت الى الحركة الصليبية ، وهي التي سنّت تأسيس الامارات وانشاء المستعمرات الفرنجية في الشرق الادنى . وهي التي اناات « معضلة الشرق » معنًى سامياً اذ ادخلت فيها عنصراً روحياً ارفع من الرغبة في ملكية بترول الموصل ، او السيطرة على طريق الهند، او التسلّط على سكة حديد بغداد . . .

هذا الدافع الروحي نحو الشرق نراه يهيب بالفرنسويين منذ اهتدائهم الى النصرانية . وقد عملت على تعزيزه وتقويته في نفوسهم تلك الحملات الجرمانية التي اكتسحت بلادهم فتركت فيها الخراب وكادت تعيدهم الى حالة الفوضى والشقاق . عند ذاك لفت الغاليون انظارهم نحو الشرق الساطع ، مهد المدنية ومنبع النور (*ex Oriente Lux*) الذي كان لا يزال ، في العالم المتمدّن ، مركز السياسة والاقتصاد والثقافة والدين . ويجدر بنا هنا ان نحدّد ذاك الشرق الذي اتجهت اليه انظار جدودنا . فانهم لم يؤخذوا بالشرق اليوناني - البيزنطي

او الاناضولي حيث كانت قد انتقلت عاصمة السلطة الامبراطورية ؛ بل اتجهوا في ذاك الحين ، اي في فجر القرون الوسطى ، الى ما تدعوه اليوم بالشرق الادنى اي الى سورية.

***

ولنجتهد الآن ، كي نفهم حقّ الفهم طبيعة هذه الجاذبية العجيبة ، في ان نتصوّر ما كانت عليه سورية اذ ذاك — وما قد يمكنها ان تكون عليه غداً . . وليس افضل من ان نقرأ وصفاً لسورية كتبه ، باللغة اللاتينية نحو السنة ٣٥٠ للمسيح ، الفيلسوف جونيوس[1] . فترك لنا صورة رائعة لبلاد آلفها العمران ، وخصها الله برخاء عجيب ، فرتع سكانها في الترف ما شاؤوا غير مهتمين بما قد يأتي به الغد . وقد عدّد جونيوس « مدائنها التجارية الطافحة بالثروات » و« مدائنها الصناعية كطرابلس وبيلوس ». اما « هليوپوليس (بعلبك) القريبة من لبنان فيعيش فيها نساء عجيبات الجمال يُدعين باللبنانيات » (*quas Libanitidas appellant*) . وهذه حجة لطلاب « لبنان الكبير » اخشى ان يكونوا قد اهملوها ، عندما طالبوا باستقلال لبنان بحدوده الجغرافية القديمة . وعلى كل فما يؤسف له في هذا الشرق العريق في القدم ان السياسة لا تهتمّ الاهتمام الكافي بالآثار القديمة . وبعد عصر جونيوس بقرنين مرّ الزائر البلزني الشهير (l'Anonyme de Plaisance) في هذه البلاد ، فاشار الى جمال اليهوديات الفائق اللواتي شاهدهنّ في الناصرة[2] وقال « انهنّ يشكرن على ذلك مريم العذراء التي يؤكدن انها كانت نسيبتهن ». وانعد الى جونيوس فنرى انه بعد ذكر بطلبك يتابع لائحته بذكر « المدائن الحسنة الجيدة كصيدون (صيدا) وسارپتا (صرفند) وپتوليايس (عكا) . ودمشق . » ثم يأخذ بالتفصيل فيشير الى ما اختصت به كل مدينة فكان سبب غناها ، ذاكراً ان صناعة الكتّان مزدهرة في اللاذقية وبيلوس وصور وبيروت ، وصناعة الارجوان في صرفند ، وقيسارية ونابلس ، وان دمشق تصدر الفستق والفواكه المتنوّعة . وفي جميع الانحاء يرى الغنى وسهولة

١) اطلب Ammien Marcellin, XIV, 8

٢) راجع في ذلك رحلته : *Itin. hierosol.* (éd. molinier), 93

العيش يدفعان الى الترف والى تطلب الملاهي المختلفة ، « وقد اشتهرت انطاكية واللاذقية وصور وبيروت بتقدم الالعاب في ميادين السباق . » وهنا ايضاً نرى لكل مدينة اختصاصها كما في الصناعة والتجارة . ففي كل منها فئة من اللاعبين يختصون بنوع من الملاهي ؛ وتختص بهم المدينة ، حتى انها تتكفل عند الحاجة بامداد جاراتها بهم . وهكذا كانت « اللاذقية تختص بالقياسين او الذين يرسلون الخيول في المضمار ؛ وصور وبيروت بالمقلدين وممثلي المهازل ؛ وقيسارية بالممثلين بالايماء ؛ وبعلبك بالزامرين ؛ وغزة وعسقلان بالمبارزين والمصارعين . »

ولا شك ان اخبار هذه السعة في العيش كانت تدفع قدماء القالين الى التفكير الطويل والمقابلة بين حياة ذاك الشعب السعيد وحياتهم هم تحت سمائهم المدلهمة بالخطوب ، في بلادهم الآهلة بالخراب على اثر تلك الاكتساحات . هذا ولم يبالغ جونيوس في شيء . نرى ذلك في اقوال غيره من السيّاح والزوّار . فنتحقق انه بينما كانت رومة تنحدر شيئاً فشيئاً نحو الانحطاط ، كانت مدائن الشرق الكبرى كالاسكندرية وانطاكية واورشليم تجمع في احشائها ثروات العالم المتمدن . ولم تكن لتُهمل مولدات العقل وآثار الثقافة . وها ان القديس ايرونيموس ياتي سورية مفتشاً عن مركز موافق يتابع فيه ابحاثه في العلوم المقدسة . وها ان القديس يوحنا فم الذهب يدشن الخطابة المسيحية الرائعة . وها ان مدارس قيسارية وغزة وصور وانطاكية تنال شهرة عالمية بتدريسها جميع العلوم اليونانية .

واذا القينا نظرة على خارج البلاد السورية نرى ان اثينة وبيزنطية تتنافسان في الحصول على الخطباء والاساتذة السوريين . بينما كان السوريان پرفيروس وپامبليكوس يبسطان الفلسفة الافلاطونية الحديثة وينشرانها بين المتأدبين . فيبدو لنا ان احفاد الفنيقيين ، مَن قد يخالهم العالم مهتمين بالشؤون المادية فحسب ، لم يقصروا عن الدرجة الاولى في شيء من علوم عصرهم وآدابه . حتى ان رومة تظهر مدينة لهم باميان مرسلان آخر من ظهر فيها من كبار مؤرخي اللاتين . اما بيروت فكفاها فخراً ان اساتذة مدرستها البعيدة الصيت كانوا يمدّون مواد قانون يوستنيانوس الشهير .

ثم اننا نرى ، الى جنب هذه المظاهر القلية ، فنّاً مبتكراً عجيباً ينمو ويزدهر . فيظهر ابتكاراته في هندسة البناء خصوصاً ، اذ يستقلّ بجرأة عن التقاليد المتداولة ، فينصرف عن استعمال الملاط والطين ، مستنداً الى نواميس الموازنة وحدها في اقرار منشآته واثباتها الى الدهر . اما في النحت والتصوير فمال الفنّ السوري ايضاً الى الاستقلال منصرفاً عن التقيّد القديم بتمثيل الطبيعة كما هي ، وتصوير الاعضاء المجرّد ، ذاك التقيد الذي كاد يحطّ من شأن الفنّ اليوناني . فجعل السوريون ، والحالة هذه ، على اعداد الفنّ المسيحي المزدهر في القرون الوسطى ، وكان لهم الفضل بان بدأوا يحرّرون الآثار الفنية من ربقة تمثيل العري والاشكال التصويرية كما هي مجردة عن كل تحسين وتجميل . ولم يكن فنّهم ضعيفاً غشيماً غير مصقول كما زعم بعض الباحثين . بل ان ما فيه من الاقتصار والاقتضاب المقصودين كان من شأنه ان يجعله لائقاً بالعبادة الروحية وبالدين الانجيلي الذي يعبد فيه الانسان « بالروح والحقيقة » .

واننا نرى في سورية ، منذ القرن الرابع ، اشهر الامثلة للكنائس والابنية الدينية التي اتخذها العالم المسيحي بعد ذاك

هذه اهم العناصر المختلفة التي كانت تلفت اذهان الزوّار والسيّاح فتجذبهم الى سورية في ابتداء القرون الوسطى . فكانوا اذا ما نزلوا شواطئ فنيقية المشعّة بالانوار ، يرون انفسهم وقد نُقلوا الى محيط عجيب باهر بسعة العيش وكثرة الترف وازدهار الفنّ . فيجولون في ساحات واسعة انيقة ، تطيف بها الاروقة الرشيقة ، ويدخلون كنائس فخمة تتمدد فيها الاعمدة ، وترتفع في زواياها الابراج ، وتحيط بها القبور الجميلة . ولا تزال حتى اليوم نشاهد الامثلة على تلك الهندسة السورية في اطلال المدن الخربة المنتشرة في نواحي انطاكية وحلب وافامية ، وجنوبي دمشق ، وفي حوران .

« وان من جال في تلك الشوارع المقفرة ، والساحات المهجورة ، والاروقة التي تتعرّش دوالي العنب على اعمدتها المقطوعة ، شعر بعاطفة تشبه العاطفة التي تتملك من يزور بومبي في ايطالية . » وكل هذه الاطلال « تؤلف مجموعاً لا يمكن ان تنتزع منه شيئاً . بل تتحد كل اجزائه وتترابط وتنتسب الى طراز

واحد والى عهد واحد ، هو عهد النصرانية الاولى الممتدّ من القرن الرابع الى القرن السابع للمسيح . »[1] وقد توقّف ازدهار هذا الفنّ الجميل على اثر الفتوحات العربية.

***

هذه حالة سورية المزدهرة التي كانت تصل اخبارها الى غالية ؛ فيقابل بها الغاليون حالتهم الضنكة وما اصبحوا فيه من الشدة منذ دخول الطغمات البربرية بلادهم وتضييقها عليهم في القيام بشعائر دينهم . وكان اكثر المكتسحين لا يزالون على الوثنية ، او انتقلوا الى البدعة الاريانية فكانوا من اشدّ اصحابها غيرة واضطهاداً لمن لم يوافقهم . فجعل الغاليون يتوقون الى زيارة سورية حيث يرون تلك التراتب التي سمعوا بها ويتمتّعون بالاقامة في بلاد تنتصر فيها المسيحية الحقّة ، فيمكنهم التبرّك بالاراضي المقدسة ، والسير على آثار السيد المسيح في الطرقات التي سار فيها ، ومشاهدة اماكن الفداء التذكارية ، وقد قامت في جميعها الآثار الفخمة والكنائس الرائعة البهجة بما زُيّنت به من الذهب والرخام وانواع الفسيفساء.

وكان الشوق يحدو بهم ، كما حدا بلامرتين بعدهم باربعة عشر قرناً ، الى « مشاهدة تلك الجبال التي كان ينحدر منها الله ؛ وتلك القفار حيث كانت الملائكة تتقدّم فتدلّ هاجر على الينبوع الخفي لتجدّد بمائه قوى ابنها المسكين... وتلك الانهر التي كانت تخرج من الفردوس الارضي ؛ وتلك السماء حيث كانت الملائكة تُنظر منحدرةً صاعدةً على سلّم يعقوب . »[2] وما هو ان سافر اول وفد ، حتى لحقه جيش من الزوّار عديد فتدافع حتى لا يقوى على ايقافه شيء. وكانت حركة تلك القوافل المتتابعة على مئات السنين.

ولكن كم كانت هذه القوافل غريبة التشكيل متنوّعة العناصر . كانت الوفود تتقدّم من اقصى حدود غالية ، على قول القديس ايرونيموس (*de ultimis Galliae finibus*) وقد كان لمواعظ الملفان الدلماتي الشهير تأثير مهمّ

(١) De Vogüé, *Syrie centrale*, p. 7-8.

(٢) Lamartine, *Voyage en Orient*, 20 mai 1832.

في حثّ سيرها . فانه لم يكتفِ بان دفع سراة الرومانيين الى زيارة الاراضي المقدّسة ، بل دعا الى ذلك ايضاً جمهور اصدقائه التاليين . فكان اولئك الزوّار ، اذا ما وصلوا ارض فلسطين ، لا يحجمون عن جولة في سورية بكاملها ، معتبرين ان جميع هذه البلاد قسم من ارض الميعاد . وهكذا كانت خطة التجار التاليين ايضاً الذين كانوا يسيرون في طلب الافاويه والطيوب والحرائر ، وخمرة غزة وصرفند ، تلك الخمرة الفائقة التي تُعدّ بحق خير سابقة لخمرة لبنان الذهبية . وكثيراً ما وصل الزوّار في سفرتهم الى انطاكية ليحيّوا القديس سمعان العمودي الذي كان يعيش منذ ثلاثين سنة على قمة عموده الغريب . وكان القديس المذكور يكلفهم ان يقرأوا السلام ، من قبله ، حال رجوعهم الى الوطن ، على القديسة جنفياف التي اصبحت فيما بعد شفيعة باريس .

وما لبثت حركة هذه الزيارة ان عمّت جميع طبقات المجتمع فشاهدنا بينهم اساقفة تور وباريس . اما اسقفا أرل ومرسيلية فانهما لجأا الى فلسطين بعد ان طردهما البيلاجيون . وكأنّ امراء الميروفنجيين ارادوا ان يسنّوا لخلفائهم تلك الخطة الصالحة التي سار عليها هؤلاء على اختلاف نزعاتهم ، فجعلوا يرسلون الوفود حاملةً الى الهياكل الفلسطينية التقادم النفيسة الدالة على مبلغ تقواهم وكرمهم الملوكي . ويذكر التاريخ ان الملكة راديغوند طلبت من احد الزوّار ان يأتيها بذخيرة تضمها في ديرها القائم في پواتيه . وسنعود الى ذكر هذه الرغبة الآخذة من القوم في الحصول على الذخائر . اما الآن فيكفينا ان نتحقق ان الشعب بكامله ، ملوكاً ورعيةً ، مرؤوسين ورؤساء ، كان يرمي بانظاره الى البلاد السورية - الفلسطينية . وكان الزوّار ، اذا رجعوا من رحلاتهم ، يأخذون بسرد الاخبار العجيبة والروايات الغريبة عمّا شاهدوا وسمعوا ، معزّزينها بالتذكارات والذخائر . ويتناقل القوم احاديثهم فيتوسّعون فيها ويزيدون عليها ، فينشرون في جميع انحاء البلاد فضائل الارض المقدّسة ويثيرون في جميع الافئدة الميل الشديد الى زيارتها . وقد روى غريغوار التوري ، في كتابه (*De Gloria martyrum*) ان حدّثه احد شمامسة تور بعد رجوعه من فلسطين انه شاهد في بيت لحم بئراً كانت العذراء مريم قد استقت منها في ما سلف . فاصبح

في قعر تلك البئر كوكب يتموّج . ومن شاء ان يراه وجب عليه ان يستر رأسه بمنديل . على ان هذه الطريقة ايضاً لم تكن تكفي لرؤية ذاك الكوكب الّا اذا كان الناظر طاهر القلب نقي الضمير . والّا فلا يراه . ثم اكد الشماس التوري انه جرّب خمس مرّات فلم يتوفق الّا مرتين لمشاهدة ذاك الكوكب العجائبي « الذي ظهر في ما مضى للملوك المجوس . »

***

ولما كان عدد المسافرين على تكاثر متواصل ، كان من الضرورة ان يهتمّ البعض بوضع « الادلة » لفائدة الزوّار . وهو برهان يدلّ على ازدياد تلك الرحلات واتساع نطاقها، كما ان ادلة جوان وبيدكر تدلّ في عصرنا على الرغبة في السياحة والجولان . وان اقدم دليل نعرفه هو المنسوب الى بوردو *Itinéraire de Bordeaux*) . وهو يذكر بكل اقتضاب وجفاف المراحل التي نزلها الكاتب ومحلّات تغيير الخيول وما بينها من الابعاد، وذلك من بوردو ، عاصمة الغارون ، حتى اورشليم ، مارًّا بشبه جزيرة البلقان والقسطنطينية، وبلاد الاناضول .

ومن صفات هذا الدليل ما يظهر انه كُتب خاصة او أُصلح لفائدة زوّار الشرق . وذلك انه ، اذ يصل الى ذكر منطقة فلسطين ، ينصرف عن اقتضابه المعتاد ، فيتوسع في الاشارة الى التذكارات القديمة الموجودة في المناطق التي يمرّ فيها المسافر . ولا يخفى ما لهذا المستند الراقي الى سنة ٣٣٣، من القيمة الثمينة . وانا نحن مدينون لغيرته واهتمامه بمعرفة عدة محلّات جغرافية ذكرها على شواطئ فنيقية ، ولم يذكرها سواه . ومن محاسنه انه يبيّن بكل دقة حدود المقاطعات ، وهو يجعل الحدّ الفاصل بين فلسطين وسورية الى جنوبي الكرمل هذا ولا يظهر ان اصدقاءنا الانكليز عرفوا هذا الدليل ولا استفادوا من هذا المستند المترفع عن كل ميل حزبي ؛ ولا يظهر كذلك ان رجال السياسة الفرنسوية فكّروا بالرجوع اليه ، عندما شاء هؤلاء واولئك تعيين الحدود بين منطقتي الانتدابين .

وهناك ادلة أُخر كدليل القديس اوشر ، اسقف ليون في القرن الخامس ، ولكن هذا لا يهتم إلّا بفلسطين . وهو ايضاً يجعل جبل الكرمل ضمن حدود فنيقية اي سورية .

(البحث صلة)